

## المؤتمر السنوي الثالث للدراسات التاريخية

### التأريخ العربي وتاريخ العرب: كيف كُتب تاريخ العرب؟ وكيف يكتب؟ الإجابات الممكنة

بيروت، 22 - 24 نيسان / أبريل 2016

# الورقة المرجعية

يهدف هذا المؤتمر إلى البحث في احتمال كتابة تاريخ العرب، بناءً على الأسئلة التي يمكن طرحها من زاوية نظر المؤرخ المعاصر، بدءاً بالسؤال، هل من تاريخ للعرب وحدهم؟ وهل من تاريخ واحد للعرب؟ وانتهاءً بأسئلة التحقيب. تطرح هذه الأسئلة بالطبع من زاوية نظر التأسيس لأمة عربية، ومن زاوية نظر الدولة العربية بعد الاستقلال، وأخيراً من زوايا نظر نقدية أخرى، تحاول هذه الورقة الخلفية التعبير عنها وإثارة الأسئلة والموضوعات حولها\*.

شهدت الكتابة التاريخية العربية، بدءاً من عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته، نهضةً اتسمت باستخدام مناهج البحث التاريخي الحديث، وذلك عبر تكوينٍ بالتدرجٍ لأجيالٍ من المؤرخين العرب الذين درسوا في جامعات غربية أو اطلعوا وتمكنوا من المناهج والطرائق الحديثة، فأتقنوا أدوات النقد والتحقيق في الوثائق والمصادر، وأنتجوا معرفة تاريخية مرموقة.

\* الموضوعات والأسئلة المثارة في هذه الورقة، غير حصرية، فللباحث حرية الاجتهاد والاختيار من داخل الإشكاليات الكبرى التي قد يثيرها الموضوع المركزي للمؤتمر.

تواصلت أجيال من المؤرخين مع هذا الإرث التأسيسي الحديث، إلى درجة يمكن أن نقول معها إنّ ثمة تراكمًا من المعرفة التاريخية المتعلقة بالتاريخ العربي والإسلامي أضحت مكتوبًا ومنشورًا على مدى عقود من القرن الماضي. ومن المؤرخين الذين ساهموا في التراكم تباعًا، من المشرق: جواد علي، وأسدرستم، ونقولا زيادة، وألبرت حوراني، وشارل عيساوي، وعبد العزيز الدوري، وصالح أحمد العلي، وحنا بطاطو، وأحمد عزت عبد الكريم، ومحمد أنيس، وشاكر مصطفى، وكمال الصليبي. ومن المغرب: إبراهيم حركات، ومحمد القبلي، والهادي الشريف، وعبد الله العروي، ومحمد الطالب، وهشام جعيط، وعمار الطالب، وأبو القاسم سعد الله، وآخرين من المغرب ومن المشرق.

وهذا الإرث من المعرفة التاريخية الحديثة، جدير بأن يعاد درسه من زاوية المعالجة التحليلية النقدية للمضامين التي شملتها هذه الأعمال، وللمناهج والمدارس التي اعتمدت عليها، ومن زاوية المساءلة عن الحصيلة المعرفية المتحققة في هذا المجال، إذ يصح التساؤل: أين أصبحنا اليوم بعد هذا الكم من الإنتاج؟ وهل وصلنا إلى ما تسميه إبستيمولوجيا العلوم "عائفًا معرفيًا" في البحث التاريخي العربي المعاصر، يحتاج تجاوزًا وتجديدًا؟ كيف؟ وما هي الأسئلة الجديدة أو المعلقة؟

لا شك في أنّ هؤلاء المؤرخين انتموا إلى أزمنة تاريخية معينة، واشتغلوا في حقول من الموضوعات شتّى؛ في حقل التاريخ السياسي "الحديث"، كما في حقل التاريخ الاقتصادي والتاريخ الاجتماعي والثقافي، كما انتظموا في مناهج ومدارس فكرية وأيديولوجية سياسية: وضعانية تجريبية من حيث المنهج، وقومية وماركسية وإسلامية من حيث الأيديولوجيا... إلخ، كما توزعوا أقطارًا ودولًا، فأنتج بعضهم في إطار التاريخ الوطني (القطري)، وبعضهم في إطار التاريخ القومي، أو الإسلامي، أو في أطر من التواريخ الإقليمية لدوائر عربية واسعة كتاريخ بلاد الشام أو الجزيرة أو وادي النيل أو المغرب العربي الكبير، أو في إطار التاريخ المقارن... إلخ.

لذلك فإنّ دراسة هؤلاء المؤرخين من زاوية التحليل الإبستيمولوجي والمنهجي لإنتاجهم يصبح مهمة أساسية معرفية أيضًا، أي إنّ الدراسة لا تتوخى التعريف بالمؤرخين وسيرهم، بل التعرف إلى آليات التراكم المعرفي الحاصل في سياق هذا الإنتاج: فما هي أهم الإشكاليات والفرضيات التي أجب عنها؟ وما كانت فائدتها معرفيًا؟ وماذا طرحت وتطرحت من أسئلة جديدة، يُفترض أن تُستكمل بحثًا وتحقيقًا ومعالجة لدى الأجيال اللاحقة؟

وفي سياق البحث في الحقول التي اشتغل عليها المؤرخون العرب، من المفيد بل الضروري أيضاً التركيز على الإنجاز الذي تمّ في حقول التاريخ العربي: تحقيقيه، ومجاله، وأبوابه، وموضوعاته، ومسائله، ومصادره، ومنهجيّاته، وكتّابه، وأهم مدارسهم.

أما المحاور والمسائل والإشكاليات التي نقترحها لأبحاث المؤتمر فهي الآتية:

### أولاً: التحقيب التاريخي العربي

كيف جرى التحقيب التاريخي العربي عند المؤرخين العرب المعاصرين؟ أي كيف نظر هؤلاء إلى تاريخهم؟ نتصوّر أنّ التحقيب الأوروبي الكلاسيكي الذي اعتمد في المدرسة الوضعانية التاريخية (التاريخانية عموماً) والقاضي بتقسيم الزمن التاريخي العالمي إلى قديم ووسيط وحديث، أثر إلى حد بعيد في تصور المؤرخين العرب المعاصرين في تحقيب زمنهم التاريخي العربي أو الإسلامي، فاعتمدت صيغته عند الكثير منهم، بل جرى في معظم الجامعات العربية وأقسام التاريخ فيها، توزيع مقرر التاريخ إلى قديم، ووسيط، وحديث.

هذا التحقيب الذي أخذ عليه عند بعض المؤرخين الجدد وعند بعض الأنثروبولوجيين البنيويين كونه جزءاً من النظرة الإثنو-مركزية الأوروبية، أمسى اليوم ومنذ فترة غير بعيدة، مسألة إشكالية، يعاد النظر فيها عالمياً، وهي تكتسب عربياً أهمية إستيمولوجية خاصة لا عند المؤرخين العرب فحسب، بل عند الباحثين في الفلسفة التاريخية وحقول العلوم الإنسانية والاجتماعية ذات الامتداد الزمني في موضوعاتها. وهي تفتح على أبواب وموضوعات متعددة تدور في إطارها النظري والتطبيقي.

### ثانياً: تاريخ عربي أو إسلامي أو عربي - إسلامي أو إقليمي أو تاريخ عالمي مقارن؟

انعكس الانقسام الأيديولوجي السياسي الذي شهدته المجتمعات العربية (ولا سيما في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى، وانهيار السلطنة العثمانية وإلغاء الخلافة، ثم تكوّن الأحزاب القومية والإسلامية، وتعدد مشاريع الوحدة والاتحادات والدول)، صراحةً أو ضمناً في الكتابة التاريخية العربية المعاصرة، صوراً مختلفة من

التصورات لماضي العرب. من ذلك تصورٌ لماضي العرب "أمّةً عربية"، أو تصوّرٌ لماضي المسلمين "أمّةً إسلامية"؛ وإذ يجد كل مؤرّخ يتمتع بدرجة من الموضوعية والنظرة المجرّدة وشمولية للأمر، (ويمعزل عن أي أيديولوجيا قومية أو إسلامية)، روابط تبرّر التأريخ لإطار إسلامي للشعوب الإسلامية (كحال بروكلمن في تأريخه للشعوب الإسلامية) أو لإطارٍ عربيٍ للشعوب العربية (كحال البرت حوراني في تأريخه للشعوب العربية أو عبد العزيز الدوري في تأريخه لتكوّن الأمّة العربية)، فإنّ الفارق أو التفريق بين النظر العلمي الحيادي، نسبيًا للماضي، وبين النظرة الإسقاطية أو الـ "أناكرونية" للأزمنة التاريخية، يبقى معيارًا صالحًا للتقييم وقياس مدى الأهمية العلمية للمعالجات التاريخية الشاملة والتكبيبية التي تناولت التاريخ العربي على حدة، أو التاريخ الإسلامي باشماله على شعوب غير عربية وذات جذور حضارية غير عربية أيضًا. هذا إلى جانب محاولات كتابة التاريخ العربي العام بأسلوب جماعي ومن خلال مشاريع دول أو من خلال المنظمة العربية للثقافة والعلوم في جامعة الدول العربية، إذ أنجز مشروع الكتاب المرجع في تاريخ الأمة العربية (7 مج) (تونس: المنظمة العربية للثقافة والعلوم، 2005). كما تجد محاولات فردية أو جماعية للتأريخ لدوائر إقليمية واسعة نسبيًا، كالتأريخ لبلاد الشام، أو للجزيرة العربية أو للمغرب العربي الكبير.

هذا على أنّ مقارباتٍ للتاريخ العربي أو للتاريخ الإسلامي، ومن وجهة نظر التاريخ العالمي المقارن، لا نكاد نجدها في الكتابة التاريخية العربية المعاصرة، إلّا لمامًا وبصورة جزئية وتعليقات. ولذا لا بد من السؤال عن ظاهرة غياب السرديات التاريخية العربية الكبرى، على غرار ما قدّمه التأريخ الغربي المعاصر، مثل أعمال توينبي، وبيران وبروديل وأندريه ميكيل؟ هذا في حين أنّ التأريخ العربي القديم سبق أن قدّم سرديات كبرى في التاريخ العالمي كما كان منظورًا إليه آنذاك بمفاهيمه وتصوراته السائدة وأدواته المنهجية المحدودة: اليعقوبي والطبري، والمسعودي، والشهرستاني ومسكويه... إلخ.

لعل الأسباب المعروفة، كالتراجع الحضاري، والتبعية، ونظرية المركز والطرف وغيرها من الفرضيات المفسّرة... إلخ، حاضرة لتفسير الظاهرة؛ لكنّ لحظْ هذه الظاهرة وبصفتها جزءًا من خيارات التأريخ العربي المعاصر في مرحلة العالمية والعولمة تثير تحديات معرفية لا بد من مواجهتها.

### ثالثاً: تاريخ القطريّات الوطنية (الدول الوطنية)

مع تكوّن الدولة الوطنية بعد الحرب العالمية الأولى ثم بعد الحرب العالمية الثانية وفي سياق تحقق الاستقلالات الوطنية في البلدان العربية، في مشرقها ومغربها، واكب هذا التكوّن التاريخي لنشوء الدولة وتطور مؤسساتها وبنائها ونخبها وأشكال الصراع بين هذه النخب، محاولات بناء "تواريخ وطنية" لهذه الدول، على أنّها دول - أمم وعلى نمط التاريخ القومي للدولة/ الأمة في أوروبا. ووفقاً لنماذج قديمها تواريخ قومية كالتاريخ الفرنسي بعد الثورة الفرنسية (القرن التاسع عشر) أو التاريخ الإيطالي أو الألماني بعد تحقيق "الوحدة" في كل منهما.

هذه التواريخ تحفل بها بعض من كتب تاريخية عربية "متخصصة" وجميع الكتب التاريخية المدرسية، ومنطلقها المفهومي جميعاً إيجاد خلفيات تاريخية تراوح بين البحث عند حدود في الجغرافيا - التاريخية، وبحث عن نطاق وطني للنخب أو للأسر المحلية الحاكمة، وسياسات منصوص عليها باتفاقيات ومعاهدات دولية.

لا شك في أنّ بناء تواريخ وطنية بهذا المعنى، لها أهداف تربوية في عملية التنشئة المدنية والوطنية، ولكنها، من جهة أخرى، تطرح إشكاليات أخرى ومن زوايا عديدة يحسن البحث فيها، كمسألة الحدود ما بين الدول/الأوطان، ومسألة الهويات الإثنية والدينية في مركب الوطن - الدولة، ومسألة العلاقة بالهوية العربية الجامعة، ومسألة العلاقة بالآخر، والمظلومية التاريخية، وقبل كل هذا الأساطير التاريخية المكونة للوعي الوطني... إلخ، وكلها مسائل تعيشها الكتابات التاريخية العربية في أقطارها جزءاً من أزمت بنيوية في مجتمعاتها وأنظمتها السياسية وبصورٍ متفاوتة في حدتها وخطرها من مجتمع لآخر. تفتح هذه المسائل الباب على العديد من الموضوعات التي تستحق البحث النقدي على امتداد أقطار الوطن العربي.

### رابعاً: حقول جديدة ومناهج جديدة في "الكتابة التاريخية"

بعد كل قفزة أو ثورة علمية في إبيستيمولوجيا علوم الإنسان والمجتمع أو في سياقها، يبرز وعي معرفي بأهمية معالجة موضوعات جديدة وحقول جديدة في التأريخ للحياة البشرية بأبعادها الإنسانية العميقة أو المسكوت عنها. كذلك في سياق تأزم المجتمعات السياسية الحديثة ودولها وأنظمتها أو بعده، يبرز أيضاً "وعي هوياتي"

بالجماعات وخصوصياتها الدينية والإثنية والثقافية عمومًا، وكما هو حاصل اليوم.

أدى هذان الوعيان - منفردين أو مجتمعين - إلى انتعاش حقول جديدة في البحث التاريخي عن الهويات الجماعية والخصوصيات الفردية. صحيح أنّ التأريخ للقبيلة أو للعائلة أو للمذهب الديني أو لإثنية معينة أو لناحية أو جهة أو لمدينة أو قرية أو للسيرة الذاتية، ليس جديدًا في التاريخ العربي، فقديمًا فاضت كُتب التاريخ العربية بهذه العناوين، لكن الجديد اليوم يأتي في سياق تأزم الدولة الحديثة، ومخاطر تفككها بعد أن "تغوّلت" الأجهزة الأمنية على حساب مؤسسات الدولة والمجتمع على حد سواء (ولا سيما في المشرق العربي)، ومن هنا يبرز في هذا الجديد، الدور الوظيفي للتأريخ لهذه "الهويات" المنبعثة من تحت غطاء منع أو قمع، أو المتخيلة أساسًا لجماعات سياسية مستقبلية مفترضة.

لكن الوعي المعرفي بالأشياء المكبوتة أو المُهمّشة أو المنظور إليها على أنها جانبية وثانوية، ولا تدخل من ثمّ في التاريخ "الرسمي" أو المعروف يبقى هو (أي الوعي) الأنموذج الأعلى (البراداييم) أو المرشد الإبستمولوجي الذي يقضي بتناول المسكوت عنه بالدراسة والكشف، وبمعزل عن يوظفه أو كيف يوظفه. فهذه المسألة تدخل في نطاق المعادلة المعروفة سلطة / معرفة ومن ثمّ في احتمال توظيف المعرفة سلبياً أو إيجابياً. لذا ينبغي إدخال الوعي بالهويات (الوعي الهوياتي) في إطار الوعي المعرفي بالأشياء كلّها في البحث التاريخي. وكذلك الوعي بالخصوصيات الفردية والفرق والجماعات، كالتأريخ للأفكار وأنماط التدين والعقليات والذهنيات، وكالتأريخ للمرض أو الوباء بأبعاده الجسدية والنفسية والاجتماعية وسبل التعامل الطبي والاجتماعي والسياسي معه، والسحر، والموت، والجنون، والسجن، والحب والعواطف، والحياة الخاصة، والجنود وغيرها.

**السؤال الذي يندرج تحت أسئلة كثيرة وموضوعات عديدة:**

**ماذا أنتجت الكتابة التاريخية المعاصرة في هذه الحقول ومدى فائدتها؟ وماذا بعد؟**